بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) ﴾

سورة الأنعام هي السورة المكية الأولى ـ إلا بضع آيات مدنية ـ في السبع الطوال التي ترسي قواعد عقيدة التوحيد الخالص بين عقول تعيش في مناخ فكري مختلط[1] . . .

(*) إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا ﴾ [١٥١ـ١٥٣] إلى تمام الآيات الثلاث.

(١) فمن تقاليد غريبة على الإسلام تراكمت على المسيحية تتكلم عن إله صفعه الناس على وجهه وكالوا له جميع الإهانات، ثم صلبوه في النهاية، وتراكمت على اليهودية تتكلم عن إله نزل إلى الجنة ليتمشى، ومنع آدم من أن يأكل من شجرة المعرفة، وقال: «ها الإنسان قد صار كواحد منا (!) يميز بين الخير والشر، وقد يمد يده ويتناول من شجرة الحياة ويأكل فيحيا إلى الأبد، فأخرجه من جنة عدن ليفلح الأرض التي أُخذ من ترابها، وهكذا طرد الله الإنسان من جنة عدن». . . ثم وجد ذلك الإله الناس اجتمعوا في بابل ليبنوا برجًا يبلغ عنان السماء، وكانوا يتكلمون لغة واحدة، فقال الرب: «إن كانوا كشعب واحد ينطقون بلغة واحدة قد عملوا هذا منذ أول الأمر، فلن يمتنع إذًا عليهم أي شيء عزموا على فعله، هيا ننزل إليهم ونبلبل لسانهم حتى لا يفهم بعضهم بعضًا، وهكذا شتتهم الرب». ثم يتصارع الله مع يعقوب، ولما لم يقدر عليه سماه إسرائيل، أي جاهد مع الله. ثم يتحدث التراث اليهودي عن ندم الله على عقابه لبني إسرائيل، وبكائه على ذلك، وعن العلاقة الخاصة جدًا بين الله وبني إسرائيل، قد =

كثر الجدل بين رسول الله محمد (ﷺ) والكفار، فتكررت كلمة ﴿ قُلْ ﴾ أكثر من أربعين مرة[1].

* * *

تشير الآيات إلى قدرة الله وعظمته، وتستوجب حمد المخلوقين على نعمه ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ بعد هذا الخلق البديع وتسخير ما في الكون لبني آدم، وخلقه ظلمات الكون والنفوس ونورها، نرى الذين كفروا يجحدون النعم، ويبتدعون شركاء لله الواحد القهار، يسوونهم به في العبادة والاستعانة ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ تذكرة مفحمة للمتكبرين ﴿ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ في الحياة الدنيا لمدة محدودة تنتهي بالموت، ثم مدة أخرى ليوم البعث ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ ثم تُشككون في البعث والحساب، بينما رب العالمين ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾ مُطلعٌ على جلائل ودقائق الأمور ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ ما أخفيتم وأعلنتم من خير أو شر ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ وكلما جاءتهم بينة من بينات الله، أعرضوا عنها.

* * *

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ۝٦ ﴾

= تظهر كما لو كانت علاقة زواج عند بعض المغالين، وكثيراً ما مثّل الكتاب المقدس انحراف بني إسرائيل وراء آلهة أخرى بالزنا وبالخيانة الزوجية، وتسرب بعض ذلك لبعض الأقوال المسيحية.
وتتكلم الأساطير الآسيوية عن إلهين، إله ظلمة وإله نور يتصارعان، وذلك في فارس القديمة، وآلهة متعددة لكلٍّ منها عمل أسطوري، وعبادات متفرقة أخرى في آسيا، منها عبادة الأرواح، وعبادة الطبيعة، وعبادة الأسلاف. أما العرب الوثنيون، فكانوا يقرون بوجود خالق، ولكنه إله خلق فقط وليس إله ربوبية، ليس له دخل بما يفعلون في حياتهم، ويعبدون أوثانًا لتقربهم لله، رغم أنه عندهم إله خلق فقط، وليس إله ربوبية، وقد يصنعونها من حلوى يأكلونها إذا احتاجوا، ولا يؤمنون ببعث ولا حساب، وأساطير فرعونية وإغريقية ورومانية تتكلم عن حكام أبناء آلهة، أو أنصاف آلهة، أو حتى آلهة، وثلاثيات مقدسة مثل إيزيس وأوزوريس وحورس.

(١) جدير بالذكر هنا نبوءة سفر التثنية، وفيها قال موسى (ﷺ): فقال لي الرب: . . . لهذا أقيم لهم نبيًا من بين إخوتهم مثلك، وأضع كلامي في فمه، فيخاطبهم بكل ما آمره به ـ ١٨: ١٨.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴾ عندما نزل القرآن على محمد (ﷺ) الذى يعرفون صدقه وأمانته، كذبوا به واستهزءوا، فلينتظروا تبعات استهزائهم. أولم يعتبروا بالأولين كقوم نوح وهود وصالح (عليهم الصلاة والسلام)، مكناهم فى الأرض أكثر مما مكنا لكم فيها، وأنزلنا عليهم المطر بكثرة وأجرينا الأنهار تحتهم، فعاشوا فى خصب ووفرة، ولكنهم ظلموا واعتدوا ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ فاستأصلناهم عندما جحدوا رسلنا ﴿ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ وخلقنا بعدهم أممًا أخرى.

* * *

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾

تبين هذه الآية أن هناك فريقًا من الناس يرفضون الإيمان، حتى لو أنزل الله على رسوله (ﷺ) كتابًا فى أوراق، لمسوها بأيديهم، لقال ذلك الفريق الكافر ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ هذا الفريق مثل كثير من أحبار اليهود وعلمائهم، الذين كذبوا آيات المسيح (ﷺ) وجحدوه، وأولئك هم الذين تنطبق عليهم آية ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

* * *

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ ﴾

وقال الكفار هلا أنزل الله عليه ملك حتى نصدقه، ويرد عليهم رب العالمين ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ ولو استجبنا لهم وأرسلنا ملكًا كما أرادوا ثم لم يؤمنوا لحاق بهم العذاب وانتهى الأمر ﴿ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ ثم لا يمهلون ولا يؤجلون ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾ حتى يمكن التعامل والتفاعل بينه وبينهم، فلا أحد يعرف طبيعة الملائكة، وكيف تعيش وكيف تعمل، وقد كرر الله ـ سبحانه ـ أنه لو أراد لجعل كل الناس مؤمنين، ولكن من حكمته أن وهبهم الفطرة والإدراك الكافيين، وابتلاهم بالتكليف، فلا يجيء أحد من البشر المخلوقين من نُطَف فيجادلون ربهم بوضع شروط لإيمانهم ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا

﴿يَلْبِسُونَ﴾ لأخلطنا وأشكلنا عليهم حينئذ ما يخلطون على أنفسهم، فيقولون إن هذا بشرٌ، وليس ملكًا.

* * *

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

وكأنما يقول الله لرسوله لا تحزن باستهزاء الكفار وسخريتهم، فمثلُك وقومك كمثل الرسل من قبلك وأقوامهم الذين سخروا منهم، ثم أصاب الذين سخروا برسلهم العقاب الذى أنذرهم به رسلهم. قل لهم يا محمد: سيروا فى الأرض لتروا عاقبة الأمم السابقة التى جحدت آيات الله، وماذا أصابهم من دمار وهلاك.

* * *

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

قل لهم يا محمد: من يملكُ السماوات والأرض ومن فيهن؟ قل الله، كتب على نفسه الرحمة، ودلائل رحمة الله منتشرة فى الكون، وفى آيات القرآن، وفى الحديث: «إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق العرش: إن رحمتى سبقت غضبى» رواه البخارى، والسبق هنا بمعنى التغلب، وليس سبقًا زمنيًا فقط ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه، ويكون الخاسرون يومئذ هم من لا يؤمنون منكم، بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر.

* * *

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾

إنه مالك الليل والنهار، وكل ما استقر وحل فيهما ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لا يوجدُ من هو أسمعُ منه، فهو خالق الأصوات والأسماع ﴿الْعَلِيمُ﴾ لا يخفى عليه شىء فى الوجود ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

* * *

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)﴾

طالما طالب المشركون محمداً (ﷺ) أن يعبدَ أصنامهم ويتناوبوا معًا عبادة الأصنام وعبادة الله، فقال تعالى لرسوله (ﷺ) قل لهم يا محمد ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ وهو استفهام إنكارى، هل يعقل أن أتخذ معبوداً غير الله؟! وهو ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالق السماوات والأرض ومبدعهما، وهو ﴿يُطْعِمُ﴾ يرزق المخلوقات ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ وهو فى غنى عن جميع خلقه ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أول من يسلم لله، ولن أكون من المشركين؛ لأنى ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أخاف يوم الحساب ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾ من يزحزح عن النار برحمة ربه ويدخل الجنة، فقد فاز ﴿الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

* * *

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)﴾

إن الله وحده هو الضار للناس بأعمالهم، وهو وحده النافع برحمته؛ وجاء فى الحديث: «إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروكَ إلا بشىء قد كتبَهُ اللهُ عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذى. فهو الغالب بقدرته وسلطانه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ صاحب الحكمة البالغة، وهو واهب الحكمة ومانعها ﴿الْخَبِيرُ﴾ بكل شىء.

* * *

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)﴾

قل لهم يا محمد: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ ما هى أكبر شهادة؟ فإن لم يجيبوا، فقل لهم: ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ شهادة الله أكبر شهادة، وإنما ذلك لإقامة الحجة على

الجاحدين ـ وفى الحقيقة ليس هناك شهادة حقة سوى شهادة الله ـ وهو عالم بما جئتكم به من حق، وقد أوحى الله إلىّ بهذا القرآن لأنذركم ﴿ وَمَن بَلَغَ ﴾ نذير أيضًا لكل من وصل إليه القرآن فى كل أنحاء العالم، فى كل مكان وزمان ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ﴾ إن كنتم تقولون إن مع الله آلهة أخرى، فأنا برىء مما تشهدون ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾.

* * *

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) ﴾

يعرف علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى محمدًا بصفاته فى كتبهم معرفة تامة كما يعرفون أبناءهم[1]، وهم بذلك قد خسروا أنفسهم حين تنكروا للرسول (ﷺ) وكفروا به وبالقرآن، ومَنْ أظلم من الكاذبين على الله والمكذبين بآياته، ولن يفلح الظالمون.

* * *

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) ﴾

تصور الآية مشهدًا من مشاهد المشركين يوم يُحشر الناس جميعًا للحساب، ويسأل الله تعالى المشركين: أين من زعمتم أنهم شركاء الله؟ ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ الفتنة من الفتن، وهو إدخال الذهب النار لمعرفة جودته من رداءته، ثم استخدمت الكلمة فى معان كثيرة، من بينها الاعتذار، وهو المعنى المقصود هنا، أى لم يكن اعتذارهم عن ذلك إلا أن نفوا شركهم فى الدنيا، انظر يا محمد كيف يكذبون يوم القيامة، وغابت عنهم الآلهة التى زعموها بضلالهم.

* * *

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ﴾

(١) ارجع لشرح الآية ١٤٦ فى سورة البقرة.

من أهل مكة من يستمع إليك يا محمد وأنت تتلو القرآن، إلا أن تكبرهم وجحودهم جعل الله يختم على قلوبهم، وكأن عليها أغطية، و يضع فى آذانهم صممًا وثقلاً، ومهما رأوا من الآيات فلا تنشرح صدورهم بالإيمان، وفقًا لقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦] حتى إذا قابلوك جادلوك رفضًا وتعنتًا، وفى النهاية يقولون ما القرآن إلا قصص الأمم السابقة التى سطرها الرواة فى سطور، ثم ينهون الناس عن الاستماع إلى القرآن خشية أن تخشع قلوبهم، ويتباعدوا عنه ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) ﴾

ولو ترى يا محمد هول يوم الحساب، عندما نحبس أولئك المكذبين أمام النار، فيقولون يا ليتنا نعود للدنيا ولا نكذب بآيات ربنا ونصبح من المؤمنين، بل ظهر لهم ما كانوا يخفونه من أعمال قبيحة عن الناس من قبل، وقيل ظهر لهم ما استيقنته أنفسهم وجحدوه من صدق محمد (ﷺ) فى رسالته، وفى علم الله الأزلى أنهم حتى إن عادوا إلى الحياة الدنيا فسيجحدوا ثانية البعث والحساب، وسيعودوا لفعل ما نهاهم الله عنه، ويقولوا: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ولو تراهم عندما يحبسهم ويسألهم: أليس هذا بالحق؟ فعندئذ يعترفون أن البعث والحساب والدار الآخرة حق، فيجيبهم رب العالمين ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

* * *

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢) ﴾

من ينكر البعث ينكر لقاء الله يوم القيامة، وجاء فى الحديث «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه» رواه مسلم، فأىّ خسارة هم فيها، إذا ما جاءتهم القيامة فجأة، فيقولون واندماه، واحسرتاه على ظلمنا أنفسنا فى الدنيا بتضييع حقوق الله وحقوق أنفسنا وحقوق العباد، ويحملون ذنوبهم على ظهورهم، فما أسوأ ما يحملون، متع الدنيا قصيرة زائلة زائفة، والعاقل من يتقى الكفر والشرك وعصيان الله، ويحمل أمانة التكليف بحقها، فيفوز بالدنيا والآخرة.

* * *

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾

قال الطبرى: [قال السدىّ: قال الأخنس بن شريق لأبى جهل: يا أبا الحكم، أخبرنى عن محمد، أصادقٌ هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيرى وغيرك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: و الله إن محمداً لصادق، وما كذَبَ محمدٌ قط، ولكن إذا ذهب بنو قُصى باللواء والسقاية والحجابة[1] والنبوة، فماذا يكونُ لسائر قريش؟]

تبين هذه الرواية، وشبيهاتها، أن هؤلاء المكذبين لم يكونوا يعتقدون أن رسول الله (ﷺ) يكذبهم فيما يبلغه لهم، وإنما هم كانوا مصرين على شركهم لمثل هذه الأسباب التى وردت بها الروايات، وما وراءها من السبب الرئيسى، وهو ما يتوقعونه من هذه الدعوة من استرداد السلطان الذى اغتصبوه، وهو سلطان الله وحده، كما هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله التى يقوم عليها الإسلام، وهم كانوا يعرفون جيداً مدلولات لغتهم؛ وكانوا لا يريدون أن يسلموا بمدلول هذه الشهادة، فهو يمثل ثورة كاملة على كل سلطان غير سلطان الله فى حياة العباد.

* * *

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾

لا تحزن يا محمد؛ لقد كذّبت أقوامٌ كثيرة رسلها، فصبر الرسل على تكذيب أقوامهم وعلى أذاهم حتى أتاهم نصر الله، ولا يمكن لأحد تبديل كلمات الله ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا

(١) اللواء: هو شرف حمل اللواء فى الحروب، والسقاية: هى سقاية الحجاج والمعتمرين، و الحجابة: هى شرف القيام بشئون الكعبة.

لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات]، ولقد ذكرنا لك أنباء المرسلين قبلك، فلك فيهم عبرة.

* * *

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) ﴾

شق وصعبَ عليك إعراضهم عن تصديق آيات الله، فإن ملكت أن تحفر فى الأرض نفقًا أو تأتى بسلم إلى السماء لتأتيهم بمعجزة تهديهم بها، ولكنهم لن يؤمنوا؛ لأنهم يعلمون الحق ويجحدونه، فلا تتألم وتُهلك نفسك؛ لأن الله لو أراد لهم الهدى بأى وسيلة لجمعهم عليه ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ بمثل هذا التمنى، فالذين يستجيبون للحق هم الذين لهم آذان يسمعون بها، أى الذين يستفيدون مما أعطاهم الله من فطرة وآذان وأبصار وعقول ومدارك، أما الذين أماتوا كل ذلك، فسيحييهم الله ـ بما أماتوه ـ يوم الحساب.

* * *

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩) ﴾

ويعود القوم إلى طلبهم الأول ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) ﴾ وفى ذلك قال محمد الغزالى:

[وأنا أعجب؛ إذا كان النظام الكونى لا يدل على الله، فهل خرق هذا النظام أحيانًا هو الذى يدلّ على الله؟

إن القمر يدور حول الأرض من دهور خلت، لا يتباطأ ولا يعْوَجّ.

فهل هذا الاطّراد لا يشهد للخالق القدير، ويشهد له انشقاق القمر بضع دقائق؟

هل السراج الوهاج الذى لا يخبو وَهَجُه على اختلاف الليل والنهار لا يدل على الله العظيم؟ ويدل عليه تأخر الغروب بضع دقائق ليوشع غلام موسى؟

إننى أشهد عالم الحيوان والإنسان والحشرات الزاحفة والطائرة، فأدهش لسُنَن الله فى حياتها وبقائها وضمان الرزق لما دقّ وجلّ منها.

ولعل ما نذكر هو السر فى سوق هذه الآية لمن يطلبون خوارق العادات من صاحب الرسالة العظمى، أعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)﴾ ولقد استوقفنى منظر العصفورة الأم وهى تطوف بين الحقول ثم ترجع بالغذاء فى جوفها، ثم تفتح منقار وليدها فى العُشّ لتطعمه وتسقيه!!

صنع الله الذى أتقن كل شىء، ومع ذلك يجهل المشركون الله الواحد، ويعكفون على حجر أصم، ويقولون لمحمد: هات لنا خارقًا من خوارق العادات حتى نؤمن بك ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩)﴾.

والغريب أنهم يحلفون أنهم سوف يؤمنون عندما يجىء هذا الخارق المطلوب ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾ [الأنعام].

هيهات! إن الأعمى لا يبصر ما دام مصممًا على إغلاق أجفانه]..

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ أكثر المفسرين على أنه اللوح المحفوظ، وقال بعضهم: هو القرآن، ومن قال القرآن، قال: فى المسائل الشرعية لدينا القرآن والسنة التى أمر باتباعها، وأمرت بالاجتهاد فيما ليس فيه نص، والاجتهاد واسع بوسائله وآلياته المتعددة، وفى المسائل الأخرى جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

***

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)﴾

يقول تعالى مخاطبًا الجاحدين: أخبرونى إذا ما آتاكم عذابُ الله فى الدنيا أو عند قيام الساعة، أتدعون غير الله لينجيكم من العذاب؟ أخبرونى إن كنتم صادقين ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾

لا يوجد غير الله تلجأون إليه بالدعاء ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ﴾ يرفع عنكم العذاب إن شاء ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ فتنسون الآلهة الأخرى التى كنتم تعبدونها.

* * *

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)﴾

أرسلنا رسلاً إلى أقوام قبلك يا محمد، وناوبنا عليهم الشدة والقحط والفقر والمرض لعلهم يرجعون إلى ربهم ويتضرعون إليه بالدعاء، فلو أنهم حين مسهم الضر توسلوا إلى الله، وتذللوا بالتوبة لعفا عنهم وهداهم، ولكن تحجرت قلوبهم، وصدق عليهم الشيطان ظنه حين رأوا ما يعملونه حسنًا، فلما أغفلوا ما ذكرناهم به من ضرورة الإيمان بالله وطاعة الرسل والعمل الصالح، ابتلاهم ربهم بالسراء، ففتح عليهم أبواب الخيرات حتى طغوا وتجبروا واطمأنوا لدوام الدنيا وفرحوا بها، ونسوا لقاء الله، فأهلكناهم فجأة، فأصبحوا متحسرين يائسين، وجاء فى الحديث «إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج» رواه أحمد، فأهلك الله القوم الذين ظلموا عن آخرهم، والحمد لله رب العالمين.

* * *

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧)﴾

أخبرونى إذا استرد الله منكم السمع والبصر، وطمس على قلوبكم ففقدتم الإدراك والتمييز، من يملك غير الله أن يرد ذلك إليكم؟ انظر يا محمد كيف نعرض الآيات ونقلبها ونُنَوعها من برهان إلى آخر، ومع ذلك يعرضون. أخبرونى إن أتاكم عذاب الله فجأة أو جهارًا، فماذا تنتظرون إلا أن يهلك القوم الظالمون؟.

* * *

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) ﴾

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ ﴾ بالثواب ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ بالعقاب الأليم، فأما المؤمنون الذين سعوا فى إصلاح أنفسهم ومجتمعاتهم ﴿ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فى الدنيا والآخرة، وأما الذين يجحدون آيات الله فعاقبتهم العذاب بما كانوا يعصون.

* * *

﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِىٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) ﴾

قل لهم يا محمد: إنك عبدٌ لله، لا تملك خزائن الله وما بها من أرزاق، ولا تعلم الغيب، ولا تدعى أنك من الملائكة، فأنت بشرٌ يوحى إليه، فيتبع الوحى ويبلغه للناس، واسألهم: هل يستوى من يبصر الهدى والذى يتعامى عنه؟، فتفكروا فى آيات الله وتدبروا، وأنذر بالقرآن الذين يخشون الله، وليس لهم أولياء غيره، ولا يتظرون شفاعة إلا بإذنه.

* * *

﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) ﴾

وهكذا يكون عناد الجاحدين، فبعد أن طلبوا مقابل إيمانهم خارقة من الخوارق، عادوا يطلبون من رسول الله (ﷺ) أن يطرد مَنْ حوله من الفقراء والضعفاء والعبيد الذين آمنوا به حتى يحتكروا الإيمان والآخرة كما أرادوا احتكار الدنيا، فنزلت الآية تنهى الرسول (ﷺ) عن طرد أولئك البسطاء الذين يبتغون وجه الله ويدعونه نهارًا وليلاً ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ ليس عليك من حسابهم شىء، ولا عليهم من حسابك شىء، تصديقًا لقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ فإذا طردتهم يا محمد نزولاً على رغبة أولئك المتكبرين لأصبحت من الظالمين. وجاء فى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص (رضي الله عنه) قال: نزلت هذه الآية فينا، فىَّ وفى ابن مسعود وصهيب وعمار

والمقداد وبلال . ولقد اختبرنا بعض الناس ببعض، ليقول بعض الظالمين: أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا؟ فأجاب الله: أليس الله بأعلم بالشاكرين؟

* * *

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥) ﴾

يأمرُ الله رسوله أن يزف البُشرى إلى هؤلاء المؤمنين، يقرئهم السلام يبشرهم برحمة الله الواسعة، ويطمئن قلوبهم بأن من عمل سوءًا وهو يجهل أحرام أم حلال ما فعل، ثم علم بعد ذلك فتاب إلى الله وأصلح من أعماله، فإن الله الغفور الرحيم سيقبل توبته، وكذلك نفصل آيات الشريعة، ونبين لكم طريق المجرمين حتى تجتنبوه.

* * *

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) ﴾

وهكذا دائمًا يرد الرسول (ﷺ) ـ بالإرشاد الإلهى ـ كل الشبهات التى يحاول الكفار إثارتها حول الدعوة وصاحبها، قل يا محمد إن الله قد نهانى عن عبادة غيره، قل إننى لن أتبع أهواءكم؛ لأنى أرى طريق الهدى، وإن اتبعتكم لأصبحت من الضالين، قل إنى على بصيرة من الله، ولكنكم كذبتم بالله ورسالته ورسوله ﴿ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ من العذاب ـ كما جاء فى سورة الأنفال ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٣٢] ـ فالحكم لله وحده، يقول الحق، وهو خير من يفصل بين الحق والباطل، قل لهم يا محمد لو أملك ما تطلبون لانتهى الأمر بإهلاككم إثر استعجالكم ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾

شبَّه القرآن الغيب بالأمور الجليلة عظيمة الشأن التى يقفل عليها بالأقفال، فلا يعلمها إلا الله، يحيط علمه بما فى الأرض والسماء، وما تسقط ورقة من شجرة أو نبات، ولا حبة من بذور النبات داخل الأرض، ولا قطرة نَدى ولا ذرة مادة جافة إلا بأمر الله، وكل ذلك مسطور فى اللوح المحفوظ، أو كتاب الكون عند الله، ويقول تعالى فى سورة الملك: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [١٤]، وفى سورة القمر ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [٥٣] ومستطر أى مسطور مكتوب، وجاء فى الحديث «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهنَّ إلا الله»، ثم قرأ الآية الأخيرة من سورة لقمان ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [٣٤] رواه البخارى.

* * *

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) ﴾

وهو الذى يقبض أرواحكم فى الليل عندما تنامون، وأصل التوفى: أخذ الشىء وافيًا ـ وجاء فى سورة الزمر ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ ـ ويعلم ما كسبتم فى النهار، ثم يوقظكم فى النهار لعدد من السنوات والأيام والثوانى حتى تستوفوا آجالكم الآخيرة، ثم يحين وقت الحساب، وهو الغالب بقدرته وسلطانه، ويرسل ملائكة حفظة كرامًا بررة، يحفظونكم ويحصون أعمالكم، حتى إذا حان الأجل تولت ملائكة الموت قبض الأرواح، وهم لا يُقصرون فيما أمروا به من الحفظ والقبض، ثم يعودون جميعًا، الأرواح والملائكة إلى ربهم ليتولى أمرهم بالحق، له الحكم وهو أسرع الحاسبين.

* * *

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) ﴾

تغوص الآية فى أعماق النفس الإنسانية، وتذكرها أنه عند الخطر فى البر والبحر، تنفض عن فطرتها السليمة كل ما تراكم عليها، واصطنعته زيفًا وزورًا، واتجهت لله خالقها الذى تعرفه، ولجأت إليه طالبة النجاة، متضرعة فى العلن وفى السر: إذا أنجيتنا يا رب، سنكون لك من الشاكرين. قل لهم يا محمد: الله ينجيكم من كربكم هذا، ومن كل كرب، ثم تشركون بعد النجاة. وهذا شأن الإنسان الكافر والمشرك وضعيف الإيمان، إن أصابته كارثة فرّ إلى الله بالدعاء، فإذا ما ذهب البلاء عاد لما كان عليه.

* * *

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) ﴾

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ مثل الصواعق والأعاصير والحكام والرؤساء الظلمة ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ كالزلازل والخسف والطوفان والعامة والأتباع المجرمين ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ أو يجعلكم فرقًا متناحرة ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ يسلط بعضكم على بعض، فيظلمه، ويشتد عليه بالعذاب والقتل ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ انظر كيف نبين قدرتنا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ ويرتدعون عن العصيان.

* * *

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) ﴾

رغم كل هذه الأدلة والآيات، إلا أن قومك يا محمد كذبوا بما جئتهم به، وما جئتهم إلا بالحق، فقل لهم يا محمد ما علىَّ إلا البلاغ المبين، ولست موكلاً على ما تفعلون، لكل بشرى وإنذار، ووعد ووعيد أنبأتكم به وقت للتحقق، وسوف تعلمون ذلك.

* * *

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) ﴾

أمر الله المسلمين بتجنب المجالس اللاهية واللاغية فى آيات الله وشرعه، فإذا ما تحدثوا فى أمور أخرى فلا مانع من مجالستهم، أما إذا خدعك الشيطان وحضرت ذلك، فإذا ما تذكرت النهى الإلهى فانصرف عن مجالس الظالمين، حتى لا تتحمل وزر ما يقولون، وفى انسحابك عن تلك المجالس تذكرة لأصحابها لعلهم يتقون الله.

* * *

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾

أعرض عن المستهزئين بالدين، وتجنب المشاركة فى اللغو والخوض فى العبث مع هؤلاء الذين غرتهم الحياة الدنيا، والمقابل أن تُذكِّر بالقرآن الجالسين لعلهم ينتبهون ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ وذكر الناس حتى لا تُسلَّم نفس إلى الهلاك، أو تُحبس وتُحرم الجنة بسبب أفعالها ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ لن تجد هذه النفس من ينصرها ولا من يشفع لها ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ وإن حاولت افتداء نفسها بكل فداء لا يقبلُ منها ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ﴾ فأولئك الذين أخذوا بما فعلوا فى حياتهم الدنيا ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ شراب بالغ الحرارة ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾.

* * *

﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) ﴾

قل ومن معك من المؤمنين للمشركين: أندعو أربابًا لا تنفع ولا تضر، ونعود إلى الشرك كما كنا من قبل بعد أن ذقنا حلاوة الإيمان، فنصبح كمن أغوته الشياطين فأصبح وأمسى

ضالاً حائراً، فى حين أرسل الله إليه أصحابًا يدعونه إلى الصراط المستقيم. قل لهم يا محمد: إن الإسلام هو طريق الهدى، وقد أمرنا الله بإسلام وجوهنا له وحده لا شريك له، ونقيم الصلاة، ونتقى الله فى كل شىء، فإليه وحده الحشر والحساب.

* * *

﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ عَـٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) ﴾

هو حقًا الذى خلق السماوات والأرض، ليست الصدفة ولا الطبيعة، فهما مخلوقات من مخلوقاته، وخلق الكون وجعل الحق مكونًا رئيسيًا فيه، فكل ما فى الكون يعمل وفق نظام بديع محكم متقن، يطيع قوانين الله وسننه، يدعو كل البشر للإيمان بالله الواحد الأحد الله الحق، واتباع الحق مكون أساسى فى طبائع البشر، إلا ما أفسده شياطين الإنس والجن فيهم ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ فذلك يوم الحساب، ويوم الجزاء على الأعمال، فلا إبليس يستطيع ألا يسجد، ولا آدم يستطيع الأكل من الشجرة، ولا للناس أن يجادلوا ويعصوا، ويكفروا أو يشركوا ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ فيما يخلق بالكاف والنون، وفيما يأمر وينهى، وفيما يخبر، وفيما يعد ويوعد ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ ﴾ يوم النفخ فى الصور هو يوم البعث والنشور، والصور والنفخ فيه من أمور الغيب، وفى ذلك اليوم، يضع الله الموازين الحق للحساب بعد انقضاء أمانة تكليف البشر على الأرض، وينتهى مُلك ملوك الأرض، ويشهد الكون كله ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦] ﴿ عَـٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ ﴾ فهو خالق عالم الغيب، وخالق عالم الشهادة ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾.

* * *

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٧٤) ﴾

إن المؤمن حين يرى الكافر فى ضلالاته يأسف ويحزن، ويحاول الأخذ بيده إلى طريق الحق، فكيف كان حال إبراهيم (عليه السلام) وهو يرى أباه آزر يتخذ الأصنام آلهة؟ قال لأبيه: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

* * *

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾

هذه قصة إبراهيم (عليه السلام) مع قومه، قال محمد الغزالى: [ويترك القرآن الكريم هذا الحاضر المعقد، ويعود بالناس قرونًا إلى الوراء، فيذكر قصة إبراهيم مع عبّاد الكواكب، وكيف حاول اقتيادهم إلى الله الواحد!.

لقد ترخّص فى مخاطبتهم وتنزّل إلى عقولهم، فنظر إلى نجم ساطع ـ لعله المشترى أو الزهرة ـ ثم قال: هذا ربى كما تقولون! لكنه غاب بعد ظهور!.

ثم نظر إلى القمر قائلاً: هذا ربى كما تزعمون! لكنه أيضًا اختفى.

ثم نظر إلى الشمس قائلاً: هذا ربى ـ فى زعمكم ـ هذا أكبر، لكن الشمس غربت وأظلم الكون.

إن الإله لا يغيب عن ملكوته، فمن يديره بعده؟. إن زمام الوجود بين أصابع القدرة، لو اضطرب قليلاً لهلكت المشارق والمغارب، بل لغاب كل شىء فى ظلمات العدم المحض!!.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر: ٤١].

وليس يتُصوَّر فى جانب الإله الحق أنه يأفل، أو يختفى لحظة أو لحظات، إنه قيّوم تَسْتَنِدُ ديمومة الوجود إلى وجوده. إنه القائم على كل نفس بما كسبت، إنه قيّم السموات والأرض ومن فيهن...

إن أسلوب إبراهيم (عليه السلام) فى التعريف بالله الواحد نقله القرآن الكريم إلى عرب الجاهلية مختومًا بهذه النتيجة ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾.

فهل يعى ذلك المشركون الذين يخاطبهم خاتم الأنبياء بالمنطق نفسه؟ إنه منطق معقول منصف!.

وتتفاوت درجات الدعاة إلى الله بمدى براعتهم في التعريف به واقتياد الناس إليه، ولذلك يقول جل شأنه ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) ﴾].

وقول محمد الغزالي يشبه قول كلّ من الزمخشري، والرازي، والقرطبي، والألوسي والشعراوي، بينما قال الطبري : [إن الصواب من القول في ذلك الإقرار بخبر الله تعالى] أي بدون تأويل للخبر في قول إبراهيم (عليه السلام) عن الكواكب.

* * *

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) ﴾

جادلوا إبراهيم (عليه السلام) في الله الواحد الأحد، فقال لهم: أتنتم الذين تحاجوني لأترك الحق وأتبع الباطل بعد أن هداني الله لإقامة الحجة عليكم؟! ولا أخاف من آلهتكم التي أعلم أنها لا تضر ولا تنفع ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾ وهذا استثناء من النوع المنقطع، يكون المستثنى فيه خارجًا في الأصل عن المستثنى منه، وفي العبارة تقديم المشيئة الربانية على كل شيء، فلن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وقد أحاط بكل شيء علمًا، أفلا تتذكرون؟ وليس من المنطق والعقل أن أخاف مما جعلتموها آلهة دون أن ينزل الله بها حجة، فأيٌّ منا أولى وأحق بالاطمئنان والأمن الرباني ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

* * *

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) ﴾

الذين يستحقون أن يستمتعوا بالأمن الرباني هم الذين آمنوا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولم يخلطوا هذا الإيمان بالشرك بالله. روى أحمد عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال (عليه السلام): «إنه ليس هذا الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]». هذه

الحجج النافذة علمناها لإبراهيم ليقنع بها قومه، وإن الله بحكمته وعلمه يرفع إلى الدرجات العلى مَنْ يستحق.

* * *

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ﴾

وبعد أن اعتزل إبراهيم (عليه السلام) قومه ـ كما جاء في ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) ﴾ [مريم] ـ وهبه الله إسحاق ولداً ويعقوب حفيداً لتقر بهما عينه، وهدينا كلاً منهما إلى النبوة، وهدينا نوحًا من قبل، ومن ذرية إبراهيم جاء أنبياء الله داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، عليهم جميعًا الصلاة والسلام، كذلك نكافئ المحسنين، وكذلك جاء زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وكلٌّ منهم من الصالحين، وإسماعيل واليسع ويونس ولوط، عليهم جميعًا الصلاة والسلام، وكلٌّ منهم فضلنا على العالمين؛ وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واخترناهم واصطفيناهم ﴿ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

* * *

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) ﴾

وبعد كل هذا الاصطفاء للأنبياء، لو أنهم أشركوا لبطل عملهم، فما بالنا بغير الأنبياء؟ أولئك الأنبياء آتاهم الله الكتب السماوية والحكمة والنبوة، فإن يكفر برسالتك مشركو قريش وأهل الكتاب فقد عهدنا بها إلى قوم يحملونها بحقها. وأولئك الأنبياء الذين هداهم الله، يأمر الله رسوله (عليه السلام) أن ينهج منهاجهم في حمل الرسالة بحقها، وقل يا محمد لكل من تبلغهم رسالتك: لا أسألكم أجرًا على السماع لي واتباعي ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) ﴾

بلغ إصرار أحبار اليهود على المكابرة والجحود، وكراهيتهم أن ينزل الله كتابه على محمد (ﷺ)، ويكلفه وقومه من العرب حمل الرسالة الخاتمة، أن أنكروا بالمرة أن الله أنزل على بشر كتابًا من قبل، فقالوا: ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ فقل لهم ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ ذكرهم يامحمد بالتوراة ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ تجعلونه أوراقًا مكتوبة مفرقة تظهرون منها ما تشاءون، وتخفون ما تشاءون ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ وتعلمتم منها، وعلى لسان محمد ما لم تعلموه ولا علمه آباؤكم من قبل ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ قل الله أنزل التوراة، ثم اتركهم في ضلالاتهم وفيما يتحدثون به عابثين.

* * *

﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) ﴾

وهذا الكتاب الذي أنزلناه عليك يا محمد، أنزلناه مباركًا للناس أجمعين، مصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية، لتنذر أهل مكة ومن حولها. ولا يؤمن بهذا القرآن إلا الذين يؤمنون بالآخرة إيمان الفطرة والمدارك السليمة، ويحرصون على إقامة الصلاة بإتمام أركانها والانتهاء عما نهت عنه، وبتذكر الله بها.

* * *

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) ﴾

لا أحدَ أظلم ممن كذب على الله، فزيف كتبه وغير رسالات أنبيائه، أو ادعى النبوة، أو قال متكبرًا متحديًا ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ من كتاب وحكمة، ولو ترى يا محمد

الظالمين عند موتهم والملائكة تخبرهم بأنه آن أوان مفارقة النفوس للأجساد، فهل تستطيعون إنقاذ أنفسكم من غمرات الموت؟ واليوم تنتهى آجالكم التى قدرها الله لكم فى الحياة الدنيا، وتبدأون عذاب الهوان بكذبكم واستكباركم على آيات الله.

* * *

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّع بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾

وها أنتم قد أتيتم إلينا فرداً فرداً، كما خلقناكم فرداً فرداً، وتركتم ما استخلفناكم عليه من مال وسلطان ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ ﴾ ذلك تهكم بالمشركين؛ فقد حضروا للحساب بغير آلهتهم التى أشركوها مع الله كشفعاء، لقد تقطعت بينكم وبينهم العلاقات والصلات ﴿ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

* * *

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) ﴾

تعود الآيات إلى بيان القدرة الإلهية ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ يشق الحب فيخرج منه النبات، ويشق النوى فيخرج منه الشجر والنخل، ويخرج الزرع من الأرض الميتة بنزول الأمطار، ويميت الزرع والنبات بمنع الماء أو بالآفات أوبغير ذلك. وقال البعض: يخرج المؤمن من الكافر، ويخرج الكافر من المؤمن ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ هذا هو ربكم الخالق القدير، فكيف يصرفكم عن توحيده أى صارف ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ شق ظلمة الليل ليظهر ضوء الصباح ﴿ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ يسكن فيه الخلق إلى النوم ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ تحسبون بهما أوقات اليوم والأسبوع والشهر والسنة، ويمثلان مرجعًا لحساباتكم ومعاملاتكم وأعمالكم ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ هكذا قدر العزيز الغالب على أمره بعلمه وحكمته ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي

﴿ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال ابن كثير: [من قديم الأزل، وحتى اليوم، يهتدى الناس بمواقع النجوم وحركتها، فى سفرهم برًا وبحرًا] ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

﴿وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾

قال سيد قطب: [﴿وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨)﴾ إنها اللمسة المباشرة فى هذه المرة.. اللمسة فى ذات النفس البشرية. النفس البشرية الواحدة الموحدة الكنه والحقيقة فى الذكر والأنثى[1]. تبدأ الحياة فيها خطوتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقحة. فنفسٌ هى مستودع لهذه الخلية فى صلب الرجل، ونفس هى مستقر لها فى رحم الأنثى.. ثم تأخذ الحياة فى النمو والانتشار. فإذا أجناس وألوان ولغات؛ وإذا شعوب وقبائل؛ وإذا النماذج التى لا تحصى، والأنماط التى ما تزال تتنوع ما دامت الحياة.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

فالفقه هنا ضرورى لإدراك صنع الله فى هذه النفس الواحدة، التى تنبثق منها النماذج والأنماط. ولإدراك الموافقات العجيبة الكامنة وراء اتخاذ التلاقح وسيلة للإكثار وتوفير الأعداد المناسبة دائمًا من الذكور والإناث ـ فى عالم الإنسان ـ لتتم عملية التزاوج التى قدر الله أن تكون هى وسيلة الإخصاب والإكثار. ووسيلة تنشئة الأطفال فى ظروف تحفظ «إنسانيتهم»، وتجعلهم أكفاء للحياة «الإنسانية»].

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ تعددت أقوال المفسرين، فمنهم من قال: المستقر هو أرحام النساء، والمستودع هو أصلاب الرجال، ومنهم من قال: المستقر هو الأرض للأحياء، والمستودع هو باطنها للأموات، ومنهم من قال: المستقر هو من دخل الدنيا واستقر فيها،

(١) لم أجد ـ فيما قرأت ـ أثرًا إسلاميًا معتمدًا لقصة خلق حواء من آدم، وهو الذى يفسر به أحيانًا قوله تعالى ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، والظاهر لى أنها نفس واحدة لاتحاد الذكر والأنثى فى الكنه والحقيقة.

والمستودع هو الذى لم يولد بعد. قد بينا الآيات لقوم يفهمون. وهو الذى أنزل الأمطار من السماء، فأحيا بها الأرض بعد موتها، وأخرجت مختلف أنواع النبات، فمنها السنابل التى تتركب فيها الحبوب مثل الحنطة والشعير وغيرها، ومنها النخل، و﴿ طَلْعِهَا ﴾ هو أول ما يظهر من ثمر النخل كالكيزان، و ﴿ قِنْوَانٌ ﴾ هى العراجين، وهى للتمر بمثابة العنقود للعنب ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ متدلية، وأخرجت جنات من الأعناب والزيتون والرمان، بعضها يشبه بعضًا فى الشكل واللون والطعم والرائحة، وبعضها مختلف رغم اشتراكها فى الماء والتربة والبذور. انظروا أيها المؤمنون إلى ثمره و﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ نضجه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ﴾

وبعد كل هذه الآيات البينات التى يمرون عليها، أشرك بعض الناس الجن فى عبادة الله، وبعضهم اختلقوا لله بنين، كما قالت اليهودُ: عُزَيْرٌ ابْنُ الله، وقالت النصارى: المسيحُ ابنُ الله، وقال بعض العرب: الملائكة بنات الله، تنزه رب العالمين وتقدس عما يدَّعُون ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ حاشا لله الذى أبدع السماوات والأرض بلا مثال سابق، كيف يدعون له الولد، وهو الذى ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾.

* * *

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾

الله وحده هو المستحق للعبادة، وهو كفيل كل مخلوقاته، لم يخلق العالم ويتركه لأرباب أخرى، سواء كانوا بشرًا أو ملائكة، أوثانًا وأصنامًا، أو عقائد وأهواء. أبصارنا المحدودة لا يمكنها أن تراه، فى الوقت الذى يرى ويبصر جميع المخلوقات فهو خالقها، وخالق أبصارها وإبصارها ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ ومن لطفه أنه لا يأمر عباده بما هو فوق طاقتهم، وينعم عليهم بما هو فوق استحقاقهم ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بخفايا الصدور ودقائق الأمور.

* * *

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) ﴾

جاءكم فى القرآن، وفى كل ما حولكم من الآيات ﴿ بَصَائِرُ ﴾ بينات من الله تعالى ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ فمن اهتدى وخشع فلنفسه ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ ومن استعمى بعد كل هذه الآيات فعلى نفسه، ويقول لهم محمد (ﷺ): ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ ليس علىَّ إجباركم على الإيمان، ولكنى مبلغ عن ربى ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ كذلك ننوع لكم الآيات، ومع هذا ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ يقولون لمحمد (ﷺ): لقد تعلمت هذا الكلام على أيدى آخرين، وليس هو وحى من عند الله، فيقول الحق سبحانه وتعالى: إنما نبين هذه الآيات ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

* * *

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) ﴾

يا محمد لا تحزن، والتزم وامتثل لوحى ربك الواحد الأحد ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فقد بلغتهم الرسالة وجحدوها، ولو شاء الله لأجبرهم على التوحيد ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ إن أنت إلا نذير وبشير، ولست قيمًا عليهم، ولا مسئولاً عنهم.

* * *

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) ﴾

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ هذه من القواعد الأساسية فى الشرع الإسلامى، ليس على المسلمين ولا الدعاة سب الشرائع الأخرى وآلهتها، إنما عليهم البيان فقط، وبالحسنى، وبالقدوة الحسنة؛ لأنهم بالمثل سيسبون إلهكم كما سببتم آلهتهم ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى جهلاً بحقيقة الله؛ واعلموا أنكم جميعًا عائدون إلى ربكم، فيخبركم بحقيقة ما فعلتموه فى الدنيا.

* * *

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾

وعاد الكفار مرة بعد مرة يطلبون معجزة خاصة حتى يؤمنوا، وأقسموا بأغلظ الأيمانات ﴿ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ ولكن من يعطل فطرته وعقله وبقية مداركه من سمع وأبصار وغيرها، لا تجدى معه الآيات التى يطلبونها، فقل لهم يا محمد: ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ وليست عندى ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وكيف تعرفون أنها لو جاءت لن تتنكروا لها كما حدث مع الأقوام الجاحدين السابقين؟ ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وأنه إذا جاءتهم الآيات التى طلبوها، فبسبب استكبارهم، لن يؤمنوا بها، كما لم يؤمنوا أول مرة، وسيستمروا فى طغيانهم يتحيرون. وأولئك هم الذين ذكرتهم الآية ١٤٦ فى سورة الأعراف.

* * *

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثامن

سورة الأنعام

من الآية ١١١ حتى نهايتها الآية ١٦٥

وسورة الأعراف

من بدايتها حتى الآية ٨٧

obeikandl.com

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾

حفل القرآن بقصص أقوام جاءتهم رسلهم بالمعجزات الخارقة، ولكنهم جحدوها وجحدوا رسلهم؛ لذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ لو أننا أنزلنا إليهم الملائكة لهدايتهم، وبعثنا لهم الموتى يكلمونهم، وجمعنا لهم كل شيء قبُلا أي عيانًا بيانًا ﴿ مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ ـ وهم الذين تصدق عليهم آية ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦] ـ ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ما آمنوا إلا طبقًا لمشيئة الله، وهي أن يؤمنوا باختيارهم، وليس بإجبارهم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ ولكن أكثر الجاحدين يجهلون تلك الحقيقة. وجاء في سورة يونس ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا (٩٩) ﴾ فحكمة الله هي في أن يؤمن الناس باختيارهم، وليس بالإكراه، أو بفرض الله عليهم ذلك.

* * *

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) ﴾

وكما فعل قومك معك من تكبر وجحود وعناد، جعلنا من قبل لكل نبي أعداء من شياطين الجن، ومن شياطين الإنس، يؤيد بعضهم البعض بالحجج والأقوال الزائفة، غرورًا من أنفسهم، وسعيًا وراء متع الدنيا الزائلة، ليبلوكم الله بهم ويبلوهم بكم ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ كل ذلك الفعل بتقدير الله، ولو أراد الله ما فعلوه، ولكن ليبلوكم وينقيكم ويقويكم، ويرفعكم الدرجات ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ فاتركهم غارقين في افترائهم ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) ﴾ ستصغى القلوب الجاحدة، التي تنكرت لشهادتها الأولى وعاندت فطرتها، وعطل أصحابها مداركهم السليمة

من عقول وأسماع وأبصار وغيرها، ستنجذب إلى زخرف القول تلك القلوب العاصية التى ترفض الآخرة، وترضى بالدنيا ومتاعها، فتعمل فى سبيلها كل ما فى وسعها.

* * *

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) ﴾

قل يا محمد للمشركين: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ هل أطلب حكمًا بينى وبينكم غير الله؟ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ وهو الذى أنزل القرآن فارقًا بين الحق والضلال، مفصلاً للصراط المستقيم ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ الذين عرَّفناهم الكتاب من اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين أن القرآن أنزله الله بالحق ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ فلا تشك، والكلام هنا موجه لأمة محمد (ﷺ)، فهو لم يشك ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ فيما أخبر، وفيما وعد وأوعد، وعدلاً فى شرعه وحكمه ﴿ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ لا أحد يملك أن يبدل كلام الله فيما أراده من عقيدة وشريعة للبشر، وفى خلقه للكون وما فيه، وهو سبحانه سميع لكل ما يقال، عليم بكل ما يحدث فى الكون ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

* * *

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) ﴾

اعلم يا محمد، وأمتك من بعدك، أن الانقياد لأكثر الناس؛ فى أمور دينك سيضلك عن سبيل الله؛ فهم ما يتبعون إلا الظن والأوهام، وربك أعلم بالضالين والمهتدين.

* * *

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) ﴾

تبيح هذه الآية للمؤمنين أكل كل ما ذكر اسم الله عليه عند ذبحه، فما يمنعكم من الأكل بعدما ذكر اسم الله على الذبيحة؟ ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ وقد حدد الله المحرم

عليكم أكله، كما فى سورة المائدة ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) ﴾ مع استثناء ﴿ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكل المحرم، أما الذين يحرمون ما أحل الله ويحللون ما حرم الله بأهوائهم من غير دليل شرعى، فيعتدون ويظلمون، والله ﴿ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) ﴾

اتركوا فعل الآثام كلها، الظاهر منها والباطن، ما يخالف الشرع نصًا وروحًا، ومن يقترفون الآثام سينالهم العقاب الذى يستحقونه، ولا تأكلوا أى ذبيحة لم يذكر اسم الله عليها عند ذبحها، ومن يفعل ذلك فقد خرج عن طاعة الله، وإن الشياطين ليُوسوسون إلى أوليائهم ليجادلوكم عندما تمتنعون عن أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله، ويحاولوا إقناعكم بشتى السبل، فيقولوا على سبيل المثال: كيف لا تأكلون ما أماته الله، أى الميتة، وتأكلون مما تميتون أنتم، أى ما تذبحون؟ فلا تُطيعوهم ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ فقد أشركتم الشياطين فى التحليل والتحريم.

* * *

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) ﴾

أو من كان ضالاً فأحييناه بنور هداية الإسلام يرشده فى الحياة بين الناس، يمكن أن نساويه بمن يتخبط فى ظلمات الشرك والجهالة، ولا يمكنه الخروج منها؟، بمثل هذا التزييف يرى الكافرون عملهم حسنًا ونجاحًا.

* * *

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) ﴾

لا تحزن يا محمد إذا رأيت أكابر قريش وبلاد العرب يمارسون المكر والخداع، ويكيدون ضد الإسلام والمسلمين ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ وكلما رأوا آية من آيات الله، زاد تكبرهم وجحودهم وعنادهم، وقالوا فى تحدٍّ ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ لن نؤمن حتى ينزل علينا الوحى كما نزل على الرسل، وفى تفسير آخر: لن نؤمن حتى نرى معجزات مثل التى أتى بها موسى وعيسى ـ عليهما الصلاة السلام ـ والإجابة القرآنية تؤيد التفسير الأول، وإن كان لقائلى التفسير الثانى أن يردوا على ذلك بأن ﴿ حَيْثُ ﴾ قد تعنى الرسول وقومه، وماذا هم فاعلون. فقل لهم يا محمد ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ هو الذى يختار بمشيئته وحكمته من هو الجدير بإبلاغ الناس وحى السماء، وعلى أى قوم، وسينال الذين مكروا هوانٌ عند الله، وعذابٌ شديدٌ.

* * *

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾

هناك آيات عديدة تبين أن من يسعى لله والحق والخير يهديه الله، ومن يكذب فطرته، ويعطل الآليات التى منحها الله له ليسعى بها لله والحق والخير، يضله الله، منها و﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) ﴾ [الليل]، والآية الحالية تعنى أن من يرد الله، بحكمته وعدله، ورحمته وفضله، وبعلمه الأزلى، أن يهديه يجعل صدره واسعًا لتقبل الإسلام، ومن يرد أن يضله، يجعل صدره ضيقًا شديد الضيق، كأنه يصعد فى السماء. قال زغلول النجار: [يمتد الجزء الغازى فى الغلاف الغازى للأرض إلى ارتفاع لا يتعدى الثلاثة كيلو مترات فوق مستوى سطح البحر، (وهو) نطاق المواءمة البيئية الكاملة لحياة الإنسان التى يستطيع العيش فيها بدون مخاطر صحية، ويمتد نطاق شبه المواءمة للحياة الأرضية من ارتفاع ثلاثة كيلو مترات فوق سطح البحر إلى ارتفاع ستة عشر كيلو مترًا، ويتميز بنقص تدريجى فى نسبة الأكسجين وتناقص الضغط بمعدلات ملحوظة، ويمكن

للإنسان العيش فى الأجزاء السفلى من هذا النطاق بصعوبة فائقة لصعوبة التنفس والخلل الذى يعترى بعض وظائف أعضاء جسده نتيجة لانخفاض الضغط الجوى. وهذه حقائق لم يدركها الإنسان إلا فى العقود المتأخرة من القرن العشرين، وإن بدأ يتحسسها منذ نهاية القرن الثامن عشر]. و﴿ الرِّجْسَ ﴾ كلمة جامعة لكل ما لا خير فيه.

* * *

﴿ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) ﴾

سنة الله فى الكون هى أن من أعطى من ماله ومن عمله لإخوانه من البشر، واتقى الله فى عمله، وصدق بأن إحسان العمل فى الدنيا يجلب إحسان الجزاء فى الآخرة؛ فيهديه الله ويشرح صدره للإسلام، أما من بخل بماله وبعمله عن البشر، واستغنى عن فعل الخير وطاعة الله، وكَذَّب بأن إحسان العمل فى الدنيا يجلب إحسان الجزاء فى الآخرة، فسييسره الله للعسرى، تلك الآيات فصلها الله لقوم يذكرون شهادتهم الأولى فى فطرهم السليمة، ويذكرون ما قصه القرآن عليهم، فجزاؤهم فى الآخرة الجنة، والله ـ سبحانه وتعالى ـ وليهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾

ويوم يحشر الله الإنس والجن، ويحاسب رب العالمين جماعة الجن ﴿ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ﴾ أضللتم كثيراً من الإنس ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ ﴾ الذين أطاعوهم ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ تبادلنا المنافع، والمتع الدنيوية الزائلة والزائفة، ثم ﴿ بَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ انتهى الأجل بالموت الذى فرضته علينا، قال لهم ربهم ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ النار مستقركم، خالدين فيها إلا ما شاء الله. ظاهر الآية استثناء من الخلود فى النار، طبقًا للمشيئة والحكمة الإلهية، ولكن كثيراً من المفسرين أولوها بعكس ظاهرها، فعلى سبيل المثال، قال الماتريدى: [قال الحسن: وقد شاء الله أن يخلدهم فى النار، وقال غيره: الاستثناء من وقت البعث إلى وقت الخلود، وقيل: الاستثناء للمؤمنين]، بينما نقل